أ. حمحامي مختار

كلّية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم العلوم الإسلامية

– جامعة وهران–

التّفسير تطوره ومناهجه

تمهيد: هذه السطور خلاصةٌ لاحقت تطور علم تفسير القرآن الكريم عبر الزمن فحددته، وميّزت بين مناهجه فبينتها، مقدِمة بين يدي ذلك مفهومَ التّفسير ومترلته بين العلوم الإسلامية، وكذا افتقار المسلمين إليه.

التّفسير لغة:

التّفسير مأخوذ من الفسر، وهو يعني عند أهل اللّسان: الإبانة وكشف المغطى، وضَبْطُ فعلِه "فَسَرَ" كضَرَب ونَصَر، فسر الشيء يُفسِره –بالكسر–: أبانه، والتّفسير: كشف المراد عن اللّفظ المشكل[1].

وردت كلمة التّفسير مرة واحدة في القرآن الكريم، وأُريد بها البيان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان: 33). قال الزمخشري في الكشّاف عند هذه الآية: "لّما كان التّفسير هو التّكشيف عمّا يدّل عليه الكلام وُضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل معناه كذا وكذا.."[2]. ومعنى الآية: لّما كان المقامُ مقامَ المحاجّة، فلا يقول المنكرون قولا يعارضون به الرّسالة إلاّ أجابهم الله – تعالى – بما هو الحقّ في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم[3].

وقد تستعمل العرب الفسر بمعنى الكشف عن الأشياء الحسّية كما استعملته في المعاني المعقولة، فتقول: فسر الفرس: إذا عَرَيْتَه ينطلق في حسره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنّه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري[4]. وفي الإتقان للسيوطي: يقال أن الفسر مقلوب السفر. تقول أسفر الصبح إذا أضاء[5].

التّفسير اصطلاحا:

تكاد أن تتطابق عبارات المشتغلين بالقرآن الكريم في تعريف التّفسير من ذكر عنصرين هامّين له: الأوّل مقاصد التّفسير، والثاني آليات التّفسير. وربّما اكتفوا بذكر مقاصده ظاهرا، غير أنّ آلياته تستتبع شرح قيود التّعريف، ومن أجمع تعاريف التّفسير التي أدرجت آليات التّفسير مع مقاصده ما ذكره أبو حيان، قال: "التّفسير علم يبحث عن كيفية النّطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك. قال: فقولنا علم جنس، وقولنا يبحث عن كيفية النّطق بألفاظ القرآن، وهو علم القراءة، وقولنا ومدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا متن اللّغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية، هذا يشمل التّصريف والبيان والبديع، وقولنا ومعانيها التي تحمل عليها حالة التّركيب، يشمل ما دلالته بالحقيقة وما دلالته بالمجاز، فإنّ التّركيب قد يقتضي بظاهره شيء ويصدّ الحمل عليه صادّ فيحمل على غيره، وهو المجاز، وقولنا تتمات لذلك هو مثل معرفة النّسخ وسبب النّزول وقصّة توضح بعض ما أُبْهم في القرآن"[6].

ومن أحسن تعاريف التّفسير التي فصلت بين مقاصد التّفسير وبين آلياته قول الزركشي في البرهان: "التّفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المترل على نبيه محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه. واستمداد ذلك من علم اللّغة والنّحو والتّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النّزول والنّاسخ والمنسوخ".(7)

أبو حيان يجعل التّفسير عِلما تندرج تحته علوم: كالقراءات ومتن اللّغة والتّصريف والبيان والبديع والنّاسخ والمنسوخ وسبب النّزول والقصص، بخلاف الزّركشي فإنّه يحد التّفسير - في قوله: "علم يعرف به فهم كتاب الله وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه" - بمقاصده، وما عدا ذلك مما جعله أبو حيان تحت تعريف التّفسير هو آلة من الآلات التي يحتاج إليها المفسر لفهم كتاب الله فقال: "واستمداد ذلك من علم اللّغة والنّحو والتّصريف ..."، فهي وسائل وليست غايات، وهي أدوات في يد المفسر لا مادة التّفسير التي ينتجها المفسر. فعمل المفسر هو فهم مراد الله تعالى قدر طاقته، مستخدما في ذلك علم اللّغة والنّحو والتّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات وأسباب النّزول والنّاسخ والمنسوخ، وقبل ذلك يستخدم القرآن الكريم نفسه لأنّ الله سبحانه أعلم بكلامه من غيره، ثمّ سنة رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - لأنّه هو المبين عن الله تعالى.

مترلة التّفسير:

علم التّفسير من أشرف العلوم التي يشتغل بها العالم لشرف موضوعه وهو كلام الله تعالى المترل على محمد - صلّى الله عليه وسلّم -، ولشرف غرضه، وهو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السّعادة، أخرج ابن

أبي حاتم من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله:﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾[البقرة:269] قال: "المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله"(8). ومعلوم أنّ هذا من علم التّفسير.

حاجة المسلمين إلى التّفسير:

قال الزّركشي: "إنّ القرآن إنّما أنزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أمّا دقائق باطنه فإنّما كان يظهر لهم بعد البحث والنّظر من سؤالهم النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – في الأكثر كسؤالهم لَمّا نزل ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[الأنعام:83] فقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه ؟ فسّره النّبي– صلّى الله عليه وسلّم – بالشّرك واستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:12] ولسؤال عائشة – رضي الله عنها – عن الحساب اليسير فقال: "ذلك العرض ومَن نوقش الحساب عذب"، وكقصة عدي ابن حاتم في الخيط الذي وضعه تحت رأسه، وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه. ولم ينقل إلينا عنهم تفسير القرآن وتأويله بجملة، فنحن نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ما لم يكونوا محتاجين إليه من أحكام الظّواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللّغة بغير تعلّم، فنحن أشدّ النّاس احتياجا إلى التّفسير"(9).

هذا ما قاله الزّركشي عن نفسه وعن عصره في القرن الثامن الهجري، فنحن أشدّ النّاس احتياجا إلى التّفسير من احتياج الزّركشي وأقرانه إليه، لا لقصورنا عن مدارك أحكام اللّغة بغير تعلّم فحسب، بل كذلك لبعد

المسلمين عن الفهم الصّحيح للإسلام، والعمل به في واقع الحياة، وهذا الذي دفع بالمصلحين في عصرنا هذا إلى الاعتماد على التّفسير في إصلاح المجتمعات الإسلامية، ولا يزال المسلمون بحاجة إلى التّفسير مادامت الحياة مستمرة كاحتياجهم إلى الهواء والغذاء أو أشدّ.

مراحل تطور التّفسير:

أولا: مرحلة التأسيس

نزل القرآن الكريم بلسان العرب، وكان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – عربيا، فلم يكن يجد عَنَــــةً في فهم القرآن الكريم، حيث تكفّل الله – سبحانه – بتحفيظه له وبيانه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾(القيامة: 17-19) .

كان الصحابة –رضوان الله عليهم – يسمعون القرآن الكريم من فم رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – فيفهمون عنه وربما توقفوا عند بعض المفردات اللّغوية[10] كما حدث لعمر ابن الخطاب –رضي الله عنه– "عن أنس ابن مالك أنّ عمر ابن الخطاب – رضي الله عنهما – قرأ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[عبس:13] قال: ما الأب ؟ ثمّ قال: ما كلفنا هذا أو قال: ما أمرنا بهذا" وفي رواية أخرى قال: "نهينا عن التعمق والتكلف"[11]. وروي عنه كذلك أنه قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ...﴾[النحل:47] ثم سأل عن معنى التخوف فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص.

ثم أنشد :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا[12] قَرِدًا *** كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ.[13]

ومنهم من لم يدرك معنى الآية فأخطأ الحكم الفقهي كعدي ابن حاتم – رضي الله عنه – فيما رواه البخاري أنه فهم من قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ﴾(البقرة:187) الخيط الحقيقي فجعل عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض تحت وسادته فجعل ينظر إليهما في اللّيل فلما ذكر ذلك لرسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – في الغدّ قال له رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –: "إنّما ذلك سواد اللّيل وبياض النّهار"(14). بل وقع هذا كذلك لغير عدي أخرج البخاري عن سهل بن سعد قال: "أنزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ ولم يترل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولم يزل يأكل حتى يتبيّن له رؤيتهما، فأنزل الله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنّه إنّما يعني اللّيل والنّهار(15).

لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم على مستوى واحد من العلم بل كانوا يتفاوتون في إدراكهم للمسائل العلمية وفهم القرآن الكريم ، عن مسروق قال: "شاممت أصحاب رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وكانوا كالإخاذة، منهم ما يروي الرجل، ومنهم ما يروي الرجلين، ومنهم ما يروي الثلاث، ومنهم ما يروي الناس، وكان عبد الله ابن مسعود ممن يروي الناس". (16) ولهذه الحقيقة قال ابن قتيبة الدينوري: "أنّ العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض" (17).

لقد أحصت كتب التّشريع الإسلامي ثلاث طبقات علمية في جيل الصّحابة – رضي الله عنهم –. الطبقة الأولى وهم المكثرون من الفتوى، والطبقة الثانية هم المتوسطون في ذلك، ثم الطبقة الثالثة وهم المقلون من الفتوى.(18)

ومما يجدر التّنبيه إليه هو أنّ الصّحابة –رضي الله عنهم – لم يكونوا يعتمدون في فهم القرآن على معرفتهم باللّغة العربية فقط – كما تمّت الإشارة إليه – بل كانوا يرجعون في كثير من الأحيان إلى النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – يستفسرونه عمّا أُشكل عليهم، وكانت مهمته – صلّى الله عليه وسلّم – البيان عن الله – تعالى –، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل: 44).

من الأمور التي استشكلت على الصحابة – رضوان الله عليهم – ما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾[الأنعام:82]، شقّ ذلك على النّاس فقالوا: يا رسول الله وأيّنا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:12]؟ إنما هو الشرك". وما أخرجه مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[الأنفال:60] ألا وإنّ القوة الرمي" (19).

هذا حال الصحابة – رضي الله عنهم – في حياة النبي – صلّى الله عليه وسلّم – أما بعد وفاته فكانوا إذا أعجزتهم السنة ولم يجدوا فيها شيئا يفسر لهم ما غمض عليهم من القرآن العظيم يجتهدون في تفسيره وفهمه، وذلك مثل ما رواه البخاري من طريق سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ

عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ[20].

من أشهر مفسري الصّحابة في هذه المرحلة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير، وأقل من هؤلاء: أنس بن مالك وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة – رضي الله عنهم –.

ثانيا: مرحلة النمو والاكتمال

بانتهاء عصر الصحابة – رضي الله عنهم – بدأت مرحلة جديدة من مراحل التّفسير، وهي مرحلة التّابعين وتابعي التّابعين، وعلى أيديهم بلغ التّفسير مرحلة النضج، حيث بدأت حركة التأليف في علم التّفسير، وتأسست مدارسه في الأمصار الإسلامية. قال ابن تيمية –رحمه الله–: "وأمّا التّفسير فأعلم النّاس به أهل مكة لأنّهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في

التّفسير مثل زيد بن أسلم، الذي أخذ عنه مالك التّفسير، وأخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب"[21].

بدأت حركة تدوين التّفسير في هذا العصر - كما مر سابقا - وكان روادَها التابعون حيث كانوا يجلسون إلى الصحابة -رضي الله عنهم- فيكتبون التّفسير. قال ابن أبي مُليكه: "رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه. فقال ابن عباس: اكتب. حتى سأله عن التّفسير كلّه"[22]، وقال مجاهد: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كلّ آية فيم نزلت؟"[23] ولقد روى تفسيره حميد بن قيس وورقاء عن ابن أبي نجيح عنه، وعيسى بن ميمون عن أبي نجيح عنه [24]. ومن بين الذين تتلمذوا على ابن عباس -رضي الله عنهما - سعيد بن جبير قال: "كنت أكتب عند ابن عباس في ألواح حتى أملأها ثم أكتب في نعلي"[25]. وأرسل تفسيره هذا فيما بعد إلى عبد الملك بن مروان المتوفى سنة: 86 هـ - الخليفة الأموي - بطلب منه، ذكر ذلك أبو حاتم في ترجمة عطاء بن دينار الهذلي المصري قال: "صالح الحديث، إلاّ أنّ التّفسير أخذه من الديوان، وكان عبد الملك بن مروان المتوفى سنة: 86هـ سأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التّفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان، فأخذه فأرسله[26] عن سعيد بن جبير" [27].

من الروايتين يتضح لنا أن سعيد بن جبير قد ألف التّفسير وجمعه في كتاب قبل سنة : 86هـ. كما نجد أبا العالية (ت: 90هـ) قد كتب نسخة كبيرة عن أبي بن كعب، ذكر ذلك الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده[28]. وكذلك الحسن البصري (ت:116هـ) قد أملى تفسير القرآن الكريم على عمر بن عبيد شيخ المعتزلة[29]. وهناك غيرُهم ممن ألف في

التّفسير من التابعين وتابعيهم[30]. ثم تتابع التأليف في التّفسير، وصار عِلما قائما بذاته، وإن بقي المحدثون يدرجون في مؤلفاتهم الحديثية تفسير النبي- صلّى الله عليه وسلّم - وتفسير الصحابة -رضي الله عنهم - ويطلقون عليه : "باب التّفسير"[31].

تميز التّفسير في هذه المرحلة بمميزات أهمها الاعتماد على تفسير النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - ورواية الأحاديث الواردة في ذلك وكذلك تفسير الصحابة - رضي الله عنهم - كما ظهرت رواية الإسرائيليات عند التابعين الذين تتلمذوا على يد مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ....وصار استعمال الرأي في التّفسير يزداد يوما بعد يوم، فكان التابعون أكثر استعمالا للرأي من الصحابة، وهذا راجع لعدة أسباب منها اتساع رقعة الإسلام ودخول شعوب غير عربية الإسلام وبداية ظهور الفرق الإسلامية ونمو الحركة العلمية وخاصة في الجانب الفقهي والكلامي، إلا أن هذا النوع من الرأي لم يخرج- في هذه المرحلة - عن التّفسير بالرواية لكونه لم يزل ينهج نهج المأثور .

ثالثا : مرحلة التّخصص

تمتد هذه المرحلة من قيام الدولة العباسية إلى وقتنا الحاضر.

لم يكد ينتهي عصر التابعين وتابعي التابعين إلا والعالم الإسلامي يشهد حركة علمية نشيطة تنموا يوما بعد يوم تتجه نحو الاختصاص في المعارف، فانعكس هذا على علم التّفسير فبعد ما كان التّفسير بالمأثور هو السائد في الأوساط العلمية ظهر الاتجاه العقلي واستخدام الرأي فيه، وكانت بدايته

عبارة عن محاولات شخصية لا تتجاوز حدود اللّغة ودلالات الكلمات القرآنية، ثم تطور بفعل المعارف المختلفة التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك حتى جمعت بعض التّفاسير أشياء كثيرة لا تتّصل بالتّفسير إلاّ عن بعد كبير، ونلاحظ أنّ كلّ مَن نبغ في علم من العلوم وفن من الفنون يكاد يقتصر تفسيره على ذلك الفن[32]، فالنّحوي طغى عليه جانب النّحو كالزجاج والواحدي وأبي حيان، والفيلسوف طغى عليه الجانب الفلسفي كالفخر الرازي، والفقيه طغى عليه الجانب الفقهي كالجصاص والقرطبي، والمؤرخ اشتغل بالقصص والأخبار دون غيرها كالثعلبي والخازن، والصوفي ملأ تفسيره بالإشارات الباطنية والترغيب والترهيب وهكذا ... وفي خضم هذا كله لم يتوقف التّفسير بالمأثور، واستمر، ووجد من يحمله، ويقاوم ما عداه من أنواع التّفسير، وخاصّة تفاسير أصحاب البدع، إلا أنّ هذا النوع من التّفسير قد مسّه شيء من التغيير، فبعد ما كان المفسرون الأوائل يهتمون بالأسانيد أيّما اهتمام كما فعل الطبري، نجد المتّأخرين قد حذفوا أسانيد الآثار كما فعل السّيوطي في الدر المنثور، وكأنّه بهذا العمل يريد أن يثبت أنّ التّفسير بالمأثور ليس قاصرا على أن يفسر جميع آيات القرآن الكريم، ولهذا لم يهتّم بدراسة الأسانيد، وتصحيح الأحاديث وتضعيفها بقدر ما اهتم بأنّ يثبت لكلّ آية من آيات القرآن حديثا يفسرها.

ظهر نوع جديد من التّفسير في هذه العصور المتلاحقة، وهو التّفسير الموضوعي الذي يهتم بموضوع واحد في القرآن الكريم فيدرسه، أو يقتصر على تفسير سورة واحدة من القرآن الكريم. ومن بين المؤلفات التي ألفت في هذا النوع مجاز القرآن لأبي عبيدة، والبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، والناسخ والمنسوخ لأبي الحسن النحاس.

أفرز عصر الانحطاط تركات حضارية سلبية كبيرة جدا مما دفع بعلماء الإصلاح في عصر النهضة إلى استخدام التّفسير كأداة من أدوات الإصلاح ولم يتوقفوا عند التراث التّفسيري السابق بل جددوا فيه أيما تجديد واستجدوا لأنفسهم منهجا يلبي حاجياتهم في الإصلاح وهذا المنهج تجسد في الاتجاه الأدبي الاجتماعي في التّفسير، ومن أهم رواده الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وبعدهما سيد قطب وهؤلاء في الشام ومصر والشيخ ابن باديس في الجزائر والشيخ المودودي في الهند...

مناهج التّفسير:

اهتم علماء الإسلام بالقرآن الكريم اهتماما كبيرا، خدموه من جوانب عدّة، ابتداء من رسمه وضبط كلماته إلى فهمه وتفسيره، ألفوا عددا كبيرا من كتب التّفسير عبر العصور، ومن خلال هذا الزخم الكبير الهائل من كتب التفاسير ظهر أنّ هناك منهجين أساسيين في التّفسير :

أولا: التّفسير بالمأثور :

هو التّفسير بالأخبار والآثار سواء كانت من القرآن نفسه أو من السنة النبوية الشريفة أو ما نقل عن الصحابة - رضوان اله عليهم - وما نقل عن التابعين ويلحق به بيان معاني الألفاظ والتراكيب مما نقل عن العرب في أشعارها ونثرها. وهذا النوع من التّفسير هو السابق في الظهور ولكن يؤاخذ على كثير ممن اعتمدوه كمنهج لهم في التّفسير عدم تحرزهم من قبول الأخبار المكذوبة والروايات الإسرائيلية، ومنهم مَن حذف أسانيد الأخبار ففقدت قيمتها العلمية.

من أشهر التفاسير بالمأثور تفسير "جامع البيان في تفسير القرآن" لشيخ المفسرين الإمام الطبري (ت:310هـ)، وهذا التّفسير يعتبر مرجعا عظيما

وأساسيا للمفسرين، قال فيه الإمام السيوطي: "وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين"[33]، ولقد أشاد الإمام ابن تيمية بهذا التّفسير وصحّحه على غيره فقال: "أمّا التفاسير التي في أيدي النّاس، فأصحّها تفسير ابن جرير الطبري، فإنّه يذكر مقالات السّلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي "[34].

فإذا كان هذا التّفسير أعظم التفاسير بالمأثور شأنا وأسبقها زمانا وموضوعا، فإنّــه كذلك يعتبر "نقطة التّحول في التّفسير، ونواة لما وُجد في التّفسير بالرأي"[35] حيث طرق مسائل عديدة تُعدّ من باب التّفسير بالرأي، كالإعراب والتوجيه اللّغوي ومناقشات فقهية وكلامية...

أثر هذا التّفسير فيمَن جاء بعده كثيرا، ومن أهم التفاسير التي تأثرت به "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" للحافظ القاضي ابن عطية الأندلسي(ت: 546هـ)، أكثر ابن عطية النقل عن ابن جرير، كما يميل إلى المباحث اللّغوية والنحوية، يقول فيه الإمام ابن تيمية وهو يوازنه بتفسير الزمخشري: "وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصحّ نقلا وبحثا، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعلّه أرجح هذه التفاسير"[36]، ولعظيم شأن هذا التّفسير اعتمده الإمام القرطبي في تفسيره فنقل عنه الكثير، مما دفع بمحقق[37] المحرر الوجيز إلى الاستعانة بهذه النقولات في تحقيق نصوصه من تفسير الإمام القرطبي[38].

كما نجد من أهم التفاسير بالمأثور أيضا "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء بن كثير(ت: 774هـ)، تأثر بشيخه ابن تيمية، نقل

عنه الكثير من أقواله دون الإشارة إليه وخاصة في مقدمة التّفسير. ولقد لقي هذا التّفسير قبولا كبيرا في الأوساط العلمية، انتهج فيه صاحبه نهج المحدثين، ينقد الأسانيد، فيصحح ويضعف وفق ما تقتضيه الصناعة الحديثية، كما أعرض عن الإسرائيليات ونبه عليها، كما تناول المسائل الفقهية مع عرض الخلافات في ذلك من غير إسراف.

ثانيا: التّفسير بالرأي :

ويراد بلفظ الرأي الاجتهاد، فالتّفسير بالرأي هو "تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول ومعرفته الألفاظ العربية ووجوه دلالتها واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر"[39].

وحتى يكون التّفسير بالرأي مقبولا يجب على المفسر أن يلتزم ما يلي[40].

- الرجوع إلى القرآن الكريم نفسه فيجمع آيات الموضوع الواحد ثم يقارن بينها.
- النقل عن الرسول - صلّى الله عليه وسلّم- مع الاحتراز من الضعيف والموضوع.
- الأخذ بما صحّ عن الصحابة - رضوان الله عليهم
- الأخذ بمطلق اللّغة العربية.
- التّفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضى من قوة الشرع.

ويجب عليه كذلك أن يتجنب ما يلي:

- التهجم على بيان مراد الله -تعالى - من غير علم باللّغة والشريعة.
- الخوض في الغيبيات التي لا علم للإنسان بها .
- القول في التّفسير لنصرة مذهب فاسد .
- إتباع الهوى والاستحسان بمحض التشهي .
- التّفسير مع القطع أن مراد الله هو كذا من غير دليل .

هذه ضوابط التّفسير بالرأي المحمود تمنع المفسر من الزيغ والخروج بكلام الله إلى غير محتملاته. ومن الملاحظ أنّ بعض كتب التّفسير بالرأي لم تكن متخصصة في جانب من جوانب الرأي، بل كانت عامة بمثابة الموسوعة التّفسيرية تجمع أصول الدين مع أصول الفقه والفقه إلى المسائل الفلسفية وعلوم اللّغة إلى الكلام عن الظواهر الطبيعية والرياضية وغير ذلك. ومن أحسن النماذج لها "كتاب مفاتيح الغيب" للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت:606هـ) ذكره أبو حيان فقال : "جمع الأمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة لها في علم التّفسير، وكذلك قال بعض العلماء: فيه كلّ شيء إلاّ التّفسير"[1] .

غير أن هذه الجوانب لم تكن متساوية، فكلّ مفسر يركز على جانب أكثر من الجوانب الأخرى على حسب ميولاته وتخصصه، فنجد الإمام النسفي(ت: 701هـ) قد أخذ تفسيره "مدارك التتريل وحقائق التأويل" من كتابين هامين: الأول: الكشاف للزمخشري، والثاني: تفسير البيضاوي الذي هو بدوره أخذ عن الزمخشري. فكان تفسير النسفي مطبوعا بالنكت البلاغية والمحسنات البديعية والكشف عن المعاني الدقيقة البيانية، غير

أنّه لم يهمل المسائل الفقهية مع انتصاره لمذهب أبي حنيفة - رحمه الله - فيها. أما الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي(ت:745هـ) فقد أكثر في تفسيره "البحر المحيط" من المسائل النحوية، وإعراب ألفاظ القرآن الكريم، وتوسع في ذكر خلافات النحويين، وتكلّم عن المفردات اللّغوية والقراءات والمسائل الفقهية وغير ذلك.

وهناك تفاسير من قبيل التّفسير بالرأي المحمود ولكنّها احتوت على شيء من التّفسير الإشاري ومنها تفسير "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" للإمام شهاب الدين الآلوسي (ت:1270هـ)، فهذا التّفسير من الموسوعات التّفسيرية جمع فيه صاحبه ما قاله علماء التّفسير من قبله مع النقد الحرّ، ويختم تفسير الآيات بالكلام عن الإشارات الصوفية التي يجدها و يتذوقها(ii) .

ويُعدّ التّفسير الفقهي من أنواع التّفسير بالرأي المحمود، يتنوع هذا النوع من التّفسير بتنوع الفرق الإسلامية، فلأهل السنة تفسير فقهي متنوع بتنوع مذاهبهم الفقهية، وللخوارج تفسيرهم الفقهي، وللشيعة تفسيرهم الفقهي، وهكذا...

من أهم التفاسير الفقهية عند أهل السنّة تفسير القاضي أبي بكر بن العربي(ت: 543هـ) المسمى "أحكام القرآن" وتفسير الإمام أبي عبد الله القرطبي(ت: 671 هـ) المسمى "الجامع لأحكام القرآن " وكلاهما مالكيا المذهب.

- أمّا أحكام القرآن لابن العربي فيغلب عليه طريقة فقهاء المحدثين، حيث يعرض عن ذكر الأحاديث الضعيفة، ويمسك الكلام عن الإسرائيليات مع شيء من الانتصار للمذهب المالكي في المسائل الفقهية.

- وأما الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي فهو أكثر توسعا من أحكام ابن العربي مع بسط في العبارة والتقسيم، اعتمد فيه الإمام القرطبي على اللّغة والإعراب والقراءات مع عزو الأقوال إلى أصحابها، كما خرّج الأحاديث مع الكلام عن الأحكام الفقهية مرتبا لها في مسائل متسلسلة، كما أعرض عن ذكر القصص والأخبار إلاّ نادرا، وكانت له مناقشات كلامية مع الفرق الإسلامية من معتزلة وقدرية ورافضة وفلاسفة وغلاة المتصوفة، ولقد اطلع على مجمل تفاسير المذاهب الفقهية كالإمام الطبري، وابن عطية وابن العربي المالكيان، والكياهراسي الشافعي، وأبي بكر الجصاص الحنفي[iii].

ووجد في مناهج التّفسير بالرأي، المنهج العلمي الذي يوظف المصطلحات العلمية في تفسير القرآن الكريم، وأول مفسر أسس قواعد هذا المنهج وروّج له الإمام أبو حامد الغزالي (ت:505هـ)، يرى أنّ الطب والنجوم والطلسمات وغيرها من العلوم كلّها متشعبة عن القرآن الكريم[iv]، كان لنظرية الغزالي هذه أثرا عمليا في"مفاتيح الغيب" للفخر الرازي(ت: 606هـ) حيث أودع فيه "كلّ ما استحدثته البيئة الإسلامية من ثقافة علمية وفكرية على آيات القرآن الكريم"[v]، ولقد بارك الإمام السيوطي هذا النوع من التّفسير حيث قال - رحمه الله -:"أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدلّ عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى ..."[vi].

في العصر الحديث احتضن عدد من العلماء هذا المنهج، واعتبروه من قبيل الإعجاز القرآني في عصر الانفجار التكنولوجي في أوروبا، لقد ظهر في تفسير روح المعاني للآلوسي (ت:1270هـ /1850م)، كما كان للشيخ محمد عبده ميل لهذا التّفسير، بل حتى عند جمال الدين القاسمي الذي التزم المنهج السلفي الأثري، يذكر شيئا من التّفسير العلمي، وينقل عن علماء الفلك، واعتبر أنّ موافقة العلوم الكونية العصرية لما جاء به القرآن الكريم من تمام إعجازه[vii]. كما نجد هذا الجانب العلمي في تفسير الشيخ ابن باديس(ت: 1940م)، فقد تعرض لظاهرتي اللّيل والنّهار وذكر فيهما ما قاله علماء الهيئة في ذلك، واعتبره من معجزات القرآن العلمية[viii]. وأجمع تفسير اهتم بهذا الاتجاه دون غيره هو "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" للشيخ طنطاوي جوهري (ت:1358هـ /1940م)، انساق في هذا الاتجاه حتى خرج عن التّفسير إلى علوم أخرى، فأثبت صورا للنباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم ... فأدى ذلك إلى عدم رضى العلماء وعامة طلبة العلم على هذا العمل، قال عنه الدكتور صبحي صالح: "وقد ألفت في القرن الأخير تفاسير لبعض العلماء المعاصرين فيها محاولات للتجديد وأقلها نصيبا من النّجاح – بلا ريب –"الجواهر في تفسير القرآن" لطنطاوي جوهري فإنّ في تفسيره كلّ شيء ما عدا التّفسير"[ix].

هذه لمحة عن التّفسير بالرأي المحمود، ويقابله التّفسير بالرأي المذموم، غير الملتزم بالشروط السابقة الذكر، ظهر هذا النوع من التّفسير بظهور المذاهب والفرق الدينية المتنوعة، ووجد مَن يناضل في نصرتها بكلّ وسيلة، فكان لظهور الشيعة والخوارج والسبئية، وقيام الدولة الأموية معتمدة في

ذلك على الولاء للقبيلة والعشيرة، ثم بعدها الدولة العباسية أثرا سيئا على الحركة العلمية، لقد شجعت الدولة الأموية القول بالجبر،[x] وشجعت الدولة العباسية في بعض أطوارها المعتزلة، ثم ظهر الاتجاه الصوفي الفلسفي الذي من أعلامه ابن عربي(ت: 638هـ) ...، كان لكلّ فرقة نهج في التّفسير، عمدت إليه لتعزز موقفها، وتبرر وجودها، انطلاقا من عقيدتها لا من النصوص القرآنية، فجعلت القرآن تبعا لمعتقداتها لا إماما لعقيدتها[xi]، ونتيجة لذلك فشا الوضع في الحديث النبوي الشريف وفي أقوال الصحابة – رضي الله عنهم-.

الهوامش

i – محمد حسين الذهبي ، التفسير و المفسرون، ج : 1 ، ص : 281 .

ii – ينظر المرجع نفسه ، ج : 1 ، ص : 341.

iii – ينظر المرجع نفسه، ج : 2 ، ص : 414 وما بعدها .

iv – ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت، مط دار الفكر، ط: الأولى 1395 هـ/1975م) ج: 1، ص: 125 و ما بعدها.

v – عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتجاهات التفسير في العصر الراهن (عمان، مط: مكتبة النهضة الإسلامية، ط: الثالثة 1402 هـ/1982م) ص : 251.

vi – جلال الدين السيوطي، الإتقان، ج : 2 ، ص : 129.

vii – ينظر : عبد المجيد عبد السلام، اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، ص 278:

viii – ينظر: عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، (الجزائر، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط الأولى 1402هـ/1982م) ص : 75 و ما بعدها .

ix – صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن (بيروت، مط: دار العلم للملايين، ط: الثالثة عشرة يوليو 1981م) ص : 297.

x – ينظر: عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي الإسلامي (بيروت، مط: دار الكتاب اللبناني، ط 1402هـ/1982م) ص : 203.

xi – ينظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج : 1 ، ص : 346.